الفصل الثالث

مصادر النّحاة في تلقى اللهجات العربية

اتفق علماء العربية الأوائل على مَنْ تُؤْخَـذُ عنهم لغة العرب، والثابت عندهم: «أن الذين أُخِذَتْ عنهم اللغة وبهم اقْتُدِىَ وعنهم أُخِذَ اللِّسَانُ العربى من بين قبائل العرب هم قـيس وتميم وأسد فإن هؤلاء الـذين أخذ عنهم أَكْثَـرُ ما أُخِذ ومـعظمه وعليهم اتُّكِلَ فى الغريب وفي الإعراب والتصريف. ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ولَمْ يؤخذْ عن غيـرهم من سائر قبائلهم[1]، وقد ظل ذلك التحديد الذى اشترطوه فيمن تؤخذ عنهم اللغة هو المسيطر -غالبا- على نشاط بعضهم في عملية جمع لغة العرب، وبهدْي منه حكَمَ بعضهم بالقبول أو الرفض على ما وصل إليهم من نصوص على حين قلَّتْ عنايةُ بـعضهم به ومالوا إلى مـا صحَّ نقله عن العرب وإن خرج عن رقعة الفصاحة.

ولعل ما دفـعهم إلى ذلك هو رغبـتهم الصـادقة فى الوصول إلى مـادة لغوية تمثـل أكثـرَ مظاهر هذه اللغة وتعبر عنهـا، ولأمر ما لم يهتم كـلا الفريقين -فى الغالب- بعزو مـا أخذوه إلى أهله من القبائل العـربية، ولهذاَ فُقِدَتْ قـيمة تلك اللهجات وقَلَّ اهتمامُ الجامعين الأوائـل بها حيث وجد من الأسبَاب والدواعى ما وجَّهَـهُمْ هذا التوجـيهَ الخـاص ودفعهـم إلى عزوفهم عن دراسـتهـا أو ملاحـقة ظواهرها إلا ما ندر، فالقـرآن قد نزل بتلك اللغة المثالية المنتقـاة -وقد مضى ذكر ذلك-، والدراسات اللغوية جميعها إنما انطلقت محافظةً على لغة القرآن ومنافحةً عنها حـينما خشي عليـها بمخالطة العرب لسـواهم من أبناء الأمم المفتوحـة بعد الإسلام، ومن هنا نجـد أن أسبابًا عديدة قـد أحاطت بطريقة الجـمع حالت دون وصول كثـير من كلام العـرب الذين أُخِذَتْ عنهم اللغةُ إلى التدوين فـضلا عن الذين تجنب الجامعون لهجاتهم لأسباب منهجية نتيجة تشككهم فى سلامة نطقهم وفصحاحته.

(١) السيوطى -الاقتراح- ١٩، المزهر ١: ٢١١ وما بعدها.

والذى نَقَلَ اللغةَ واللسانَ العربيَّ عن هؤلاء العرب وأَثْبَتَها في كتاب وصيَّرهَا علما وصناعةً هم أوائل البصريين والكوفيين[1]، وقد وصل إليهم جميع ذلك من ناحيتين:

أولاهما: أعراب الحاضرة:

الذين كانوا يجاورونهم على مشارف الصحراء أو أولئك الذين استوطنوا هذين البلدين حين بدأوا ينشدون كلام الأعراب.

فقد روي أن مجموعةً من القبائل العربية تقدر بحوالى ١٩٢ قبيلة قد استوطنت البصرة فى بدء نشأتها، وحافظت هذه القبائل على عاداتها ولغتها.

وكان الحالُ فيهما امتدادا للحياة العقلية الجاهلية مصبوغةً بالصبغة الإسلامية، فقد كان فى القبائل العربية النازلة بالبصرة والكوفة رؤساء وكان هؤلاء الرؤساء أشبهَ شيء برؤساء القبائل فى الجاهلية فى السيادة على قبائلهم والتفاف الناس حولهم والخضوع لإشارتهم فى السلم والحرب ووقوف الشعراء ببابهم يَتَغَنَّوْنَ بمدحهم وينشرون مفاخرهم ويهجون أعداءهم ويتغنى هؤلاء السادة بالسيادة والمروءة وبذل المال وما إلى ذلك كالأحنف بن قيس سيد تميم، والحكم بن المنذر ابن الجارود سيد عبدالقيس البصرة، ومالك بن مسمّع سيد بكر البصرة، وقتيبة بن مسلم سيد قيس البصرة، ومحمد بن عمير بن عطارد بن حاجب بن زرارة سيد تميم الكوفة، وحسان بن المنذر من قبة الكوفة، وحجر بن عدي، ومحمد بن الأشعث سيدي كندة الكوفة وغيرهم، وهؤلاء وأمثالهم كانوا مصدرا لحياة أدبية قوية من شعر يشبه الشعر الجاهلى، وحِكَمٍ تشبه التى تُرْوَى عن أكثم بن صيفى[2]».

واستطاعت سوق المربد أن تحتل مكانة سوق عكاظ في الجاهلية، فقد كان يَفِدُ إليها فصحاءُ الأعراب ببضاعتهم ليبيعوا ما عندهم ويشتروا حاجاتهم وكان من بين هؤلاء من تكون بضاعته ثروته اللغوية وما يحفظ من أشعار من مَضَوْا فى الغابرين، وقد كان علماء اللغة يشافهون الأعراب ليأخذوا مرادهم من كلامهم.

(١) الاقتراح ١٩.

(٢) أحمد أمين - فجر الإسلام ١٨٦.

لهذا ظلت المربد منتدى يغشاه جامعو اللغة من نحاة ولغويين، ولإحساس هؤلاء الأعراب بأهميتهم وفيما عندهم دفعهم في بعض من الأحيان إلى التزيُّد وربما الكذب، فوضع الجامعون لكلام العرب من أفواه هؤلاء القوم شروطا واختبروا الناقلين حتى يطمئنوا إلى سلامة لغتهم وفصاحة ما ينقلون[١].

نقل عن أبي عمرو بن العلاء: أنه سأل أبا خيرة: كيف تقول: سَمِعْتُ لُغَاتَهُمْ؟ فقال: بالفتح، فقال: هَيْهَاتَ يا أبا خيرة لاَنَ جِلْدُك[٢]. «ولا تزال كتب الأخبار تحتفظ بأسماء الأعراب الذين دفعتهم الضرورة تحت إهمال العباسيين من أوطانهم اللاهثة المتوجعة ليقدموا معارفهم اللغوية إلى السادة الجدد»[٣].

قال أبو زيد: كنا يوما عند المفضل وعنده الأعراب، فقلت: «أيُّهم يقول: شِيَره «شجرة»؟ فقالوها، فقلت: قلْ لهم يحقرونها، فقالوا: شُيَيْرة»[٤].

والخصومة التي جرت بين سيبويه والكسائي إنما كان الحكم فيها للأعراب الذين قال فيهم الكسائي يخطاب يحيي بن خالد البرمكى:

«هذه العرب ببابك وفدوا عليك من كل صقع وقد سمع منهم أهل البلدين فيحضرون ويسألون فقال يحيي وجعفر: أنصفت»[٥].

وهكذا وجد الأعراب أنفسهم موضع اهتمام وعناية من الطبقات العلمية فى العراق فوافوهم بما عندهم وقبلوا منهم ما ثبت لديهم صحته.

ثانيتهما: أعراب البادية:

والمعروف أن أقدم رحلة علمية إنما كانت على يد يونس بن حبيب الضبي في القرن الثاني، وقد بدأت عملية جمع اللغة بجمع الأمثال والحكم والأشعار على الخصوص باعتبارها ديوان العرب يوم أن ابتعدت الألسن عن عهد الفطرة»[٦].

وقد ظل الحافز إلى جمع اللغة والاتصال بالأعراب فى مواقعهم إنما هو التعرف على ما لديهم من لغة دَفَعَتْ إليها الحاجة إلى فهم كتاب الله والبحث فى أحكام

---

(١) الدجنى - ظاهرة الشذوذ فى النحو العربى - ٩٠ وما بعدها.

(٢) الخصائص ٢: ١٣.

(٣) يوهان فك -العربية ٥٣.

(٤) القالى -الأمالى ٢: ٢١٠ ط ٢.

(٥) المغنى ١: ٨٨.

(٦) مجلة اللسانيات ع ١ ص ٤٠.

دينه، وقد قاد كل ذلك إلى دراسة لغة وآداب العرب فيما بعد وليس مهمّا بعد هذا البحث عن أي من الدواعي عـجَّل بهذا الاتصال أو شـجع عليه، فقـد زار علماء اللغة البادية وأقاموا بهـا أياما وشهورا غشوا خلالها منازل الأعـراب واجتمعوا بهم في مجالسهم وشاركوهم أحاديثهم في السمر وليالي السهر فتوطَّدَتْ بينهم الصداقة ومـتنت بينهـم أواصر الـعـلاقة فـأفـضـوا بما عـندهم من آداب مـتنوعـة راويين ومدونيين. . وإذا كـان التحديد الذى ذكره أبو نصـر الفارابي قد منع بعـضهم من لهجات لقبائـل اعتُبِرَتْ خارجةً عن نطاق الفصاحة لما عَـرَضَ لأهلها من الاختلاط بغيـرهم والتأثر بهم فى أسـاليب كلامهم، فـإن بعضهم قـد انطلقوا -كـما قلنا- يجمعون لهجاتِ هؤلاء وأولئك فكانوا بين متوسِّع فى اللهجات ومضيِّق فيها، وقد رُوي عن بعضهم أنه قال: إن الأصمعي يفتيك في ثلث اللغة وأبو عبيدة يفتيك في نصفها، ذلك لأن الأصمعي كان يضيق ولا يجوز إلا أصحَّ اللغات»[1].

وينقل صاحب الجمهرة عن أبي عمرو قوله «رأيت باليمن»[2].

ويقول ابن جني: وقد حكى الأصمعي عن أبي عـمرو بن العلاء قال: سمعت رجلا من اليمن يقول: فلان لَغُوُب جاءتْه كتابي فاحتقرها[3].

ونقل السيـوطي عن الأصمعي عن المعتـمر بن سليمان أنه قـال: «بَل هو مباح بلغة حمير»[4]، وكثيرا ما يقولون: سمعنا أعرابيا، وقال أعرابى، قال الأصمعي: وقف أعرابـي على قوم من الحـجاج فقل: يا قـوم: بدء شأنى والذى ألجـأنى إلى مسـألتكم أن الغيث كان قـد قَوِيَ عنا ثم تَكَرْفَـأ السحاب وَشَـصَا الرباب وأدْلَهَمَّ سِيْقُه[5]. . .».

وقال القالي: حـدثنا أبو بكر قال: حدثنا أبو حاتم عن أبي عـبيدة عن يونس قـال: وقف أعرابي فـى المسجـد الجـامع فى البـصرة فـقـال: قَلَّ النيلُ ونَقَصَ الكَيْلُ[6]. . وقال أيضا: «حـدثنا أبو بكر بن دريد قال: أخبرنا عـبدالرحمن عن

(١) المزهر ٢: ٤٠٤.
(٢) جمهرة اللغة ٢: ١٤٧.
(٣) الخصائص ١: ٢٤٩.
(٤) المزهر ١: ٤١٥.
(٥) نفسه ٢: ٥١١.
(٦) نفسه ٢: ٥٢٢.

عـمه عـن أبي عمـر بن العـلاء، قـال: رأيت باليـمن غـلاما من جـرم ينشـد عنزا[1]..».

وقال السيوطي: قال أبو عبيـدة فى العروة مثله أو نحوه إلا أنه قال هذا البيت: شجرة العُرَى وعُرَاعِرِ الأَقْوَامِ

لشرحبيل رجل من بنى تغلب[2]، وحدثنا أبو بكر قال: حدثنا السكن بن سعيد قال: قيل لرجل من حمير: ما الداء العضال؟

قال: هوى مـحرض وحسـد ممرض وقلب طروب ولسان كذوب وسـؤال كديد ومنع جحيد، ورشد مطرح، وغنى ممتخ»[3].

وقال أبو بكر: الزخيخ بلغة أهل اليمن: النار»[4].

وحدثنا أبـو بكر قال: حدثنا الـسكن بن سعيـد عن محـمد بن عـباد عن ابن الكلبى قال: قيل لرجل من حمير: ما الغِر فيكم؟ قال: حوط الحريم وبذل الجسيم ورعاية الحق وقول الصدق، وترك التحلي بالباطل والصبر على المشاكل، واجتناب الحسد، وتعجيل الصفد[5].

ومـعظم من ذكرناهم مـن هؤلاء العلماء هم من الـسابقين الأولين فى تأسـيس صرح علم النحـو، وإذا كان كتاب سيـبويه -الذى يمثل أول تقعيد لـلعربية وصل إلينا- قد اعتـمد في بناء قواعده على الاستـعمال اللغوى العـام عند معظم العرب دون استثناء، إلا أننا نجده أحيانا يلجأ -عند اختلاط اللهجات وتباينها- إلى ترجيح كفة اللسان الحجازى[6].

والمتأمل في كتـاب سيبويه يرى أنَّ الرجل وإِنْ آمن بمذهب أصحاب تنقـية اللغة وحكَّمه فيما أقـدم عليه في شئون الاستعمال اللغـوي العام، إلا أن هناك ما يؤكد خروج سيبويه -ولو طفيفا- على ما قرره أبو نصر الفارابي وغيره من علماء العربية من تحديد لدائرة الأخذ والقبول، صحيح أن سيبويه لم يستشهد بشعر لِمُحَدثٍ أَلْبَتَة

(١) نفسه ٢: ٥٤٨.
(٢) المزهر ٢: ٣٣١.
(٣) القالي -الأمالي- ١: ١٧٦.
(٤) نفسه ١: ١٧١.
(٥) المزهر ١: ١٦٤.
(٦) الكتاب ٢: ٤٢٤ -ط بولاق.

إلا أننا نؤكِّد احتجاجه بشعر لأقوام لا ينتمون إلى رقعة الفصاحة التي حددها علماء اللغة كعدى بن زيد، وأبي دؤاد[١]، وهما ممن لم يرو بعض علماء العربية أشعارهما بشهادة الأصمعي لانحراف لهجتهما عن لغة نجد[٢]، كما اعتمد على شعر لأمية بن أبي الصلت[٣]، وغيره من بني حنيفة.

وأهل العربية قد نحَّوا هاتين البيئتين عن دائرة الأخذ[٤]، كما نجد فى الكتاب أشعارا نُسِبَت للكميت، والطرماح، والفرزدق وذى الرمة[٥].

وقد قيل: أن أبا عمرو بن العلاء وعبدالله بن أبي إسحق وعيسى بن عمر والحسن البصرى وعبدالله بن شبرمة كانوا يلحَّنون الفرزدق والكميت وذا الرمة وأضرابهم ويعدُّونهم من المولدين الذين لا يستشهد بكلامهم[٦]، كما أورد سيبويه شعرا لقوم لم تكن العربية سليقةً لهم كزياد الأعجم وأبى عطاء السندي[٧].

وأورد أشعارا لمجهولين وكل ذلك غير مقبول للاحتجاج به في قواعد العربية[٨]. ويبلغ الأمر مداه عند سيبويه عندما يترك ذلك ليقول: وليس في كلامهم، إنهم يقولون، وقد حملهم، وإنما كلامهم، ولكنهم تركوا، وسمعنا من يوثق به من العرب، وسمعنا من العرب من يقول، ومن ذلك قول العرب، وهذا قول العرب، وهذه حجج سمعت من العرب، كان ذلك عربيا جيدا، فهذا عربي كثير، وأعلم أن ناسا من العرب، ومن يوثق به من يزعم أنه سمعها من العرب. .

وقد يعتمد أيضا جانب الفصاحة ويميل إلى لغة الفصحاء من الأعراب فقد كانوا الحَكَمَ في مسائل اللغة، والمرجعَ عند النقاش واحتدام الخلاف.

فإذا تأملنا في موقف معاصر لسيبويه وممن أخذ عمن أخذ عنه سيبويه سوى الخليل وهو أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش «ت - ٢٢١هـ» «فقد كان يستشهد بقول لبنى قشير وهم من سكان اليمامة وأهل العربية لا يأخذون عن بني

---

(١) الكتاب ١: ٧٠، ٣٣.
(٢) الخزانة ٤: ١٩١.
(٤) الكتاب ١: ١٦٣.
(٤) الاقتراح ١٩.
(٥) الكتاب ١: ٥٩، ٢١٢، و١٠، ٢٥٠ على الترتيب.
(٦) الخزانة ١: ٣.
(٧) الكتاب ١: ٢٥٢، ٢٦٦.
(٨) الخزانة ١: ٣ وما بعدها.

حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وسكان الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم، وكذا ذكر أقوالا لبكر بن وائل مع أن ديار بكر بن وائل كانت تمتد من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة فأطراف سواد العراق فالأُبُلَّة فهيت وهي ديار لا يُطَمأَنَّ إلى لغات ساكنيها وكذا يذكر لغات لأهل اليمن وأهل العربية لا يأخذون من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ولولادة الحبشية فيهم.

ومهما يكن فإن تعمُّدَ الأخفش لإيراد هذه القبائل وذكر لهجاتها كاف وحده للدلالة على عدم اقتناعه بدعوى تحريم الأخذ منها»[1].

وسار متأخرو البصريين ممن أتوا بعد سيبويه على ما سار هو عليه واستَنُّوا سنته يتوسعون وقد يضيقون.

أما الكوفيون: فقد اتخذوا من الأعراب سواء أكانوا يجاورونهم فى مواطنهم أم كانوا لا يزالون ضاربين خيامهم في أعماق الصحراء مصدرا مهمّا لجأوا إليه بغية الوقوف على لغة العرب[2].

ويذكِّرنا سؤال الكسائي للخليل بن أحمد لما وفد عليه واستمع إليه في مجلسه فأُعْجِبَ بما لديه فقال له: «من أين لك هذا؟ قال: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة، فخرج إليها وأنفد فيها خمس عشرة قنينة من الحبر سوى ما حفظه»[3] على مبلغ عناية الكوفيين وعلى رأسهم زعيمهم الكسائى بتتبع لهجات الأعراب والاتصال بهم فى منازلهم ومحالِّ إقامتهم، وهم بعد هذا وثقوا بمن سَاكَنُوهم فى الكوفة أو حَلُّوا قريبا من ديارهم من أنصاف القبائل العربية، ووجدوا فى لهجاتهم فصاحة وبعدا عن الاختلال والعِيِّ فمالوا إلى الأخذ بها «فقد أخذ الكسائى بلهجات أعراب الأرياف كأعراب سواد الكوفة من تميم وأسد وأعراب سواد بغداد من أعراب الحطمة[4].

(١) منهج الأخفش فى الدراسات النحوية ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠.

(٢) مهدى المخزومى -مدرسة الكوفة ٣٧٧.

(٣) نزهة الألباء ٨٢ وما بعدها.

(٤) مدرسة الكوفة ٣٧٧.

كما افترضوا سلامة اللغة فى كثير ممن أَبَى البصريون الاحتجاج بكلامهم فهذا الكسائى -أيضا- يثق فى اللغة بأبي زياد الكلابي وأعراب آخرين كانوا قد نزلوا بغداد أيضا كأبي فقعس، وأبي الجراح، وأبي ثروان[1].

كما وجدناهم قد أخذوا عن بنى العنبر من تميم[2].

والمؤكد أن هؤلاء النحاة قد استقوا مادتهم اللهجية مما وصل إليهم من نصوص فقد جاءهم عن العرب شواهدُ تمثل تراثا شعريا ضخما وأمثالا وفيرة العدد، وقراءات متواترة حرص ناقلوها على الحفاظ عليها وتشدَدُّوا تشددا كان مضربَ الأمثال[3].

وأحاديث شريفة صَحَّ سندُها ونُقِلَتْ بألفاظها، وهى تحوى -مع كل ذلك- كميةً هائلة من اللهجات العربية.

ففي مجال الشعر:

نجد من النحاة من يعتمد عليه اعتمادا شديدا في تصوير مظاهر اختلاف لهجات العرب، ولعل ذلك قد أتاهم من قِبَل أن الشعر من أكثر المصادر التى يميل إليها العربي بفطرته، وهو أسهل حفظا لما يتمتع به من وزن وقافية، ومن ناحية أخرى كان أكثر تداولا بين ألسنة قبائل العرب، وكل يرويه حسب لهجته وعاداته الكلامية فى النطق والأداء، ولهذا كَثُرَتْ فيه الرواياتُ واختلفت فيما بينها اختلافًا ملحوظا، فالنحاة يستشهدون بقول جرير:

ألاَ أَضْحَتْ حِبَالُكُم رِمَامَا وَأَضْحَتْ مِنْكَ شاسِعةً أُمَامَا

على إجراء الاسم المؤنث في غير النداء لما اضطر كما أجراه في النداء لكن ينقل عن أبي زيد أنه قال:

أنشدنا هذا البيت أبو العباس محمد بن يزيد(*) عن عمارة:

---

(١) المزهر ٢: ٤١٠. (٢) الميدانى -مجمع الأمثال ١: ١٢٣.

(٣) عبدالأمير محمد -منهج الأخفش الأوسط فى الدراسات النحوية ١٨٧.

(*) لا ندرى كيف أخذ أبو زيد الأنصارى الذى توفى سنة ٢١٦ هـ على أبعد تقدير عن المبرد الذى ولد سنة ٢١٠هـ إذا علمنا أن المبرد كان في هذه الفترة في سن مبكرة نزعم أنها سن الطلب -لاشك أن في النص اضطرابا لم ينبه عليه محقق النوادر.

obeikandl.com

وَمَـا عَـهْـدٌ كَـعَـهْـدِكِ يَا أُمَـامَـا[1]

وينقل النحاة قول الشاعر:

فَقُلْتُ: ادْعُ أُخْرَى، وارْفَعِ الصَّوْتَ جَهْرَةً لَعَـلَّ أبي المِغَـوارِ مِنْـكَ قَـرِيْبُ

ولكن ينقل عن أبي زيد أنه قال: قال كعب بن مالك بن سعد بن مالك الغنوي:

وَدَاعٍ دَعَـا هَلْ مِنْ مُجِـيْبٍ إلى النَّدَى فَلَمْ يَسْـتَـجِـبْـهُ عِنْدَ ذَاكَ مُـجِـيْبُ

فَقُلْتُ: اُدْعُ أُخْرَى وارْفَعِ الصّوْتَ جَهْرَةً لَعَـلَّ أَبَا المِغَـوَارِ مِنْكَ قَـرِيْبُ[2]

وهى الرواية التي أوردها النحاة -كما سبق- فالبيت إذا روى بروايتين:

إحداهما: موافقة للغة الفصحى.

والثانية: تثبت لهجة عقيل أو هذيل وهم من نسب إليهم الخفض بها في الاسم الواقع بعدها.

ولعل اختلاف الروايات فيما وصل إلينا من كلام العرب إنما يرجع -فى أكثره- إلى الاتساع فـى المعنى؛ إذ هو مفاد مما عـبر عنه من الألفـاظ جمـيعا فـسامـحوا أنفسهم في العبارة عنه إذ المعنى عندهم هو المقصود[3].

وقد أشار بعض قدماء الباحثين إلى ذلك فقالوا: «إن الرواة قد تغير البيت على لغتها وترويه على مذاهبها مما يوافق لغة الشاعـر ويخالفها حيث كان ينشد بعضهم شعـر بعض وكل يتكلم على مـقتضى سـجيـته التى فطر عليـها، ولذلك كـثرت الروايات فى البيت الواحـد، ألا ترى أن سيبـويه قد يستـشهد ببيت واحـد لوجوه شتى؛ وإنما ذلك على حسب مـا غيرّته الرواة بلغاتها، وكلها يصح الاسـتشهاد به على الجواز من غير الضرورة لأن لغة الراوي من العرب شاهد كما أن قول الشاعر شاهد إذا كانا فصيحين[4].

---

(١) أبو زيد الأنصارى -النوادر فى اللغة ٣١.

(٢) النوادر فى اللغة ٣٧. (٣) الخصائص ٢: ٤٦٦.

(٤) الخزانة: ٢: ١٣١.

ويبدو أن من ذهب ذلك المذهب كان على حق -كما هو ظاهر ما قدمنا- إذ من الثابت أن لكل قبيلةٍ لهجتَها (مذهبَها الخاصَّ بها في الكلام)، ولابد أن يظهر اختلافُ لهجاتها وتباينُ خصائصها في شعر أبنائها والمتحدثين بلسانها فيما ينشدونه من قول ويروونه عن سواهم من أبناء القبائل الأخرى، ومن هنا فقد حمل ذلك المصدر «الشعر» -الذى قد كان من أمر اعتناء النحاة به ما قدمنا- صورا مختلفة من مظاهر اختلاف اللهجات العربية في النواحي الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية. -وقد أشرنا إلى بعض ذلك- ومن ثم رأينا:

التلتلة: نحو ما أنشده سيبويه عن حكيم بن معية الربعى:

لَوْ قُلْتَ مَا فِيْ قَوْمِهَا -لَمْ تِيْثَمِ يَفْضُلُهَا فِيْ حَسَبٍ وَمِيْسَمِ[1]

والكشكشة كقول مجنون ليلى[2]:

فَعَيْنَا ش عَيْنَاهَا وَجِيْدُ ش جِيْدُهَا وَإِنْ كَانَ عَظْمُ السَّاق مِنْش دَقِيْقُ

والعنعنة: كقول ذى الرمة[3]:

أَعَنْ ترسّمت من خرقاء منزلة ماء الصُبّابةِ من عينيك مسجوم

الطمطمانية[4]: كقول القائل:

ذَاكَ خَلِيْلِيْ وَذُو يُوَاصِلُنِيْ يَرْمِيْ وَرَائِيْ بِامْسِهَمْ وَامْسَلِمَهْ

والوكم[5] كقول الحطيئة:

وَانْ قَالَ مَوْلاَهُمْ عَلى جُلِّ حَادِثٍ مِنَ الدَّهْرِ رُدُّوا فَضْلَ أَحلاَمِكِمْ رَدَّوا

والعجعجة كقول بعض أهل اليمن:

يَارَبِّ إِنْ كُنْتَ قَبِلْتَ حِجَّتِج فَلاَ يَزَالُ شَاجِحٌ يَأْتِيْكَ بِجِ[6]

(١) الكتاب ٢: ٣٤٥، شرح المفصل ٣: ٥٩، الخزانة ١: ٣١١.
(٢) شرح المفصل ٨: ١٥٠، جمهرة اللغة ١: ٢٣٨.
(٣) الصاحبى ٣٥.
(٤) المغنى ١: ٤٨.
(٥) الكتاب ٢: ٢٩٤.
(٦) النوادر: ١٦٤، سر الصناعة ١: ١٩٣.

والوتم: كالذى نسب إلى علباء بن أرقم:

يَاقَـــاتَلَ اللهُ بَنِيْ السَّـــعْـــلاَتْ عَـمْـرَو بْنَ يَرْبُوعٍ شِـرَارَ النَّاتْ[1]

وورد فيه: إبدال الثاء تاء كالذى نسب إلى بنى قريظة فى قول السمؤال اليهودى:

وأَتَتْنِـيَ الأَنْبَـاءُ أَنِّى إذَا مَـا مُتُّ أَوْ رُمَّ أَعْظُمِـيْ مَـبْـعُـوثُ[2]

وإبدال بني تميم ومن تابعهم الجيم ياء كقول أم الهيثم:

إذَا لَمْ يَكُنْ فِـيْكُنَّ ظِـلٌّ وَلاَ جِنَى فَـأَبْـعَـدَكَنَّ اللهُ مِنْ شِـيَـرَاتِ[3]

وإبدال قيس ومن تابعهم للصاد زايا فى قول الشاعر:

يَزِيْدُ -زَادَ اللهُ فِـيْ خَـيْـرَاتِه- حَـامِـيْ نِزَارٍ عَنْدَ مَـزْدُ وقَـاتِه[4]

وإبدال بعض أهل اليمن للصاد تاء في قول عبد الأسود بن عامر الطائي:

فَـتَـرَكْنَ نَـهْـلاً عَـيَّـلاً أَبْنَاؤهَا وَبَنِيْ كِنَـانَةَ كَـا لِلُّصُـوتِ المُرَّدِ[5]

وإبدال هذيل للواو المكسورة المتطرفة همزة كقول ابن أبى مقبل:

إلاَّ الإفَـادَةَ فَـاسْـتَـوْلَـتْ رِكَـائِبُنَا عِنْدَ الجَـبَـابِيْرِ بَالْبَـأْسَـاءِ والنَّعَمِ[6]

ونظائر ذلك في الشعـر كثيرة تجـل عن الحصر، وسيـأتى الحديث عن ذلك في موضعه من القسم الثانى في هذا البحث.

كـما رأينا فـيـه صـورا من إلزام المثنى الألف فى الأحـوال كلهـا كقـول هوبر الحارثى:

تَزَوَّدَ مِـنَّا بَـيْنَ أُذْنَـاهُ ضَـــــرْبَةً دَعَـتْهُ إلَى هَابِيْ التُّـرَابِ عَقِـيْمِ[7]

وكقول الآخر:

يَالَـيْتَ عَـــيْـنَاهَـا لَنَا وَفَـــاهَا بِـثَـــــمَنٍ نُـرْضِيْ بِـهِ أَبَاهَـا[8]

(١) النوادر ١٠٤، سر الصناعة ١: ١٧٢.
(٢) الأصمعيات ٢: ٧٥ - دار المعارف.
(٣) اللسان -مادة شجر-.
(٤) سر الصناعة ١: ٢٠٨.
(٥) نفسه ١: ١٧٣، شرح المفصل ١٠: ٤١.
(٦) الكتاب ٢: ٣٥٥.
(٧) النوادر ٥٨.
(٨) شواهد العينى المطبوع على هامش الخزانة ١: ١٣٣.

وفتح بعض العرب نون المثنى كقوله:

أَعْـرِفُ مِنْهَـا الجِـيْـدَ وَالْعَـيْنَانَا وَمَنْخَـرَيْـنِ أَشْـبَـهَـا ظَبْـيـانَا[1]

وضمها بعض العرب كقول الشاعر:

يَا أَبَـتَـا أَرَّقَنِـيْ القَـذَّانُ فَـالنَّـوم لاَ تَأْلَفُـهُ العَـيْنَانُ[2]

وإعراب جمع المذكر السالم بالحركات الظاهرة على النون لاسيما فى الملحق به كقول سحيم:

وَمَـاذَا تَـدَّرِى الشُّـعَـرَاءُ مِنِّي وَقَـدْ جَـاوَزْتُ حَـدَّ الأَرْبَعِـيْنِ[3]

وإعمال أدوات عند بعض العرب وإهمالها عند آخرين كقول المجنون:

إِذَا مَـا غَـدَوْنَا قَـالَ وِلْـدَانُ أَهْلِنَا تَعَالوا إلى أَنْ يَأْتِنَا الصَّيْدُ نَحْطِبِ[4]

وكقول بعضهم:

أَنْ تَهْبُطِيْنَ بِلاَدَ قَـوْمٍ يَرْتَعُوْنَ مِنَ الطِّلاَحِ[5]

وصـرف بعض الأسمـاء، ومنع صرفـها عـند آخرين، كـما عـرف عن بعض الحجازيين من بناء نحو حذام على الصرف من قول القائل:

إِذَا قَـالَتْ حَـذَامِ فَـصَـدِّقُـوهَا فَـإِنَّ القَـوْلَ مَـا قَـالَتْ حَـذَامِ[6]

وقلب بعض أصوات الكلـمة وإعلالها عـند بعض العرب كمـا تفعل طيء في نحو «بقى» من نحو ما نسب إلى زيد الخيل:

فَـرُدُّوا عَلَيْنَا مَـا بَـقَـا مِنْ نِسَـائِنَا وَأَبْنَائِنَا وَاسْـتَمْـتِـعُوا بِالأَبَاعِـرِ[7]

وسيأتى الحديث عن كل ذلك فى موضعه من القسم الثانى من الكتاب..

---

(١) الخزانة ٣:٣٣٦.
(٢) حاشية الصبان ١:٩١، الهمع ١:٤٩.
(٣) الخزانة ٣:٤١٤، الهمع ١:١:٤٩.
(٤) المغنى ١: ٣٠.
(٥) الخصائص ١:٣٨٩.
(٦) شرح التصريح ٢: ٢٢٥.
(٧) شرح أبيات سيبويه للسيرافي ٢: ٢٤٨ وما بعدها.

ومن كل ما سبق نرى أن الشواهد الشعرية التى زَخِرَتْ بها كتبُ النحو قد حملت في معظمها مظاهر شتى من صفات اللهجات العربية التي كانت تعج بها ألسنةُ قبائل العرب القاطنة في شبه الجزيرة العربية في النواحي الصوتية والصرفية والنحوية. . وكل ذلك كان مصدراً مهمًا أوقف الباحثين في شئون لهجات العرب على حقيقة بعض تلك المظاهر وأنواعها، وظَلَتَّ تْوُجِّهُ مسار الدرس النحوي صعودًا وهبوطًا سلبًا وإيجابًا إذ تبعث الدارسين على وضع مسائل أخرى أو معارضة الوارد عن طريقها أو تخريجه على صور الشذوذ والندرة أو القبح والقلة - وسنرى ذلك فيما بعد- فهذا أبو العباس المبرد يطعن على سيبويه روايته لهذين البيتين:

فَالْيَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إِثْمًا مِنَ اللهِ وَلاَ وَاغِلِ

وقوله:

رُحْتِ وَفِيْ رِجْلَيْكِ مَا فِيهْمَا وَقَدْ بَدَا هَنْكِ مِنَ المِئْزَرِ[1]

ويخرجها على ما يتفق والقاعدة النحوية[2].

ولكن المعروف أن ذلك لهجة حكيت عن تميم، فلا يلتفت إلى قول أبى العباس فى مثل هذا، وسنتحدث عن ذلك فيما بعد. . .

أما الأمثال:

ففوق أنها تُمَثِّلُ لغةَ عصرها ومستواه العقلى، فإنها خير ممثل للغة قائليها؛ لأن الأمثال لغة الشعب التي يطلقها قدر الحديث دون تصنُّع، فلطالما ظل الشعر ممثلا لطبقة من الناس يُعَدُّون فى مستوى أرقى من مستوى العامة، فَيُعَبِّرونَ بألفاظ مصقولة صقلا يستوجبه الشعر، وهذا بخلاف الأمثال التي كثيرا ما تنبع من أفراد الشعب نفسه، وتعبر عن عقلية العامة، ولذلك تجد كثيرا منها غيرَ مصقول ولمْ يَتخَيَّرْ لها ألفاظ الأدباء ولا العقلاء الراقين، ولعل هذا هو السبب في أن كثيرا من الأمثال العربية يفهم معناها إجمالا لا تفصيلا. . ، وقد ينبع المثل من طبقة راقية فيكون راقيا مصقولا وقد ينبع من العامة فلا يكون كذلك[3].

---

(١) الخصائص ١: ٧٤ وما بعدها.

(٢) الهمع ١: ٥٤.

(٣) فجر الإسلام ٦٠ وما بعدها. . بتصرف.

ولهذا فإن دراسة الأمثال تفيد مادةَ الدرس اللهجي خير فائدة، وتصوِّرُ لغة أصحابها وطرائقهم في استعمالات اللغة وأدائها.

قال الميداني: أَتَى عَلَيْهُمْ ذو أتى[1]... هذا مثل من كلام طيء[2]، و«ذو» فى لغتهم تكون بمعنى الذي- كما يقوله النحاة، ويقولون: «نَحْنُ ذُوْ فَعَلْنَاَ كَذَا «أى نحن الذين فعلنا كذا، وذُوْ فَعَلَ كَذَا، وَهِيَ ذُوْ فَعَلَتْ كَذَا».

قال شاعرهم:

فَإِنَّ المَاءَ مَاءُ أَبِي وَجَدِّي وَبِئْرِي.. ذُوْ حَفَرْتُ وَذُو طَوَيْتُ

وورد فى المثل: اسْتَأْصَلَ الله عَرقَاتَه[3] قال أبو عمرو يقال:

استأصل الله عرقات فلان وهي أصله، وقال المنذري:

هذه كلمة تكلمت بها العرب على وجوه، قالوا: استأصل الله عَرْقَاتَه، وعِرْقَاته وعِرْقَاتَه.. وقال ابن فارس والأزهري: العرب تقول في الدعاء على الإنسان: استأصل الله عِرْقَاتَه «ينصبون التاء لأنهم يجعلونها واحدة مثل سعلا، وقال آخرون: بل هى تاء جماعة المؤنث لكنهم خففوه بالفتح[4].

والمثل شاهد فى كتب النحاة لمن أجاز النصب بالفتحة فى مثل هذا الجمع مما هومفرد ملحق بجمع المؤنث، أو جمع معتل اللام محذوفها كثبة ولغة[5]. فقد نقل عن أبي خيرة لما سأله أبو عمرو: كيف تقول في سمعت لغاتهم؟ فقال: سمعت لُغاتَهُمْ بفتح التاء فقال أبو عمرو: هيهات يا أبا خيرة لاَنَ جِلْدُك. وكان أبو عمرو بعد ذلك يرويها بالكسر والفتح[6].

وقالوا[7]: اسقِ أَخَاكَ النَّمريَّ يَصْطَبِح[8] وهو مثل قول الشاعر:

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَنْ لاَ أَخَا لَهُ كَسَاعٍ إِلىَ الهَيْجَا بِغَيْرِ سِلاَحِ

(١) مجمع الأمثال ١: ٦٨.

(٢) ويطلق هذا المثل على حوادث الدهر التي تمر بالخلق.

(٣) يراد بالعرقاة: الأصل، وهذه كلمة تقال في الدعاء على الإنسان

(٤) مجمع الأمثال ١: ٦٢. (٥) الهمع ١: ٢٢.

(٦) نفسه ١: ٢٢، الخصائص ١: ٣٨٤.

(٧) أمثال العرب -ليونس بن حبيب ١٣٨.

(٨) يقال أن قومًا من العرب كانوا بالدهناء في شدة ومعهم ماء قليل يقتسمونه فشرب كل منهم حصته، فلما أخذ أحدهم الإناء ليشرب نظر إليه أحدهم فظنه عطشان فقال: اسق أخاك.. فذهبت مثلا.

وقد جاء ذلك على لهجة من ينصب الأسماء الستة بالألف، وهي أشهر اللهجات فيها، ومثله قوله:

إِذَا تَرَضَّيْتَ أَخَاكَ فَلاَ أَخَا لَك[1]

وقالوا: مُكْرَهٌ أَخَاكَ لاَ بَطَلٌ «فألزم أخاك الألف فى الرفع على لهجة[2] أوردها النحاة[3] عن قبائل معروفة من العرب، وقياس اللغة العالية هو: أخوك. وقالوا[4]: لَيْتَ القِيَاسَ كُلَّها أَرْجُلاَ»[5].

كذا ورد في المثل نصبًا وهي لهجة عزيت إلي تميم حيث يعملون «ليت» عمل «ظن» فيقولون: ليت زيدا شاخصًا كما يقولون: ظننت زيدًا شاخصًا[6]، وهو مذهب لبعض الكوفيين. وقالوا[7]:

تَسْمَعَ بِالمُعَيْدِيِّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ[8] ويمكن أن تكون رواية النصب قد جاءت على مذهب بعض العرب الذين يحذفون «أن» المصدرية الناصبة، وينصب بها مع الحذف وهو غير مقيس عند النحويين، وعليه جاء قول عروة بن الورد: ؟

فَقَالُوا: مَاتَشَاءُ: فَقُلْتُ أَلْهُو إِلَى الإِصْبَاحِ آثَر ذِى أَثِيْرِ.

والتقدير: أن ألهو، فأن مقدرة معنى وإن لم ينصب الفعل لفظا[9].

وقالوا[10]: الجَارَ ثُمَّ الدَّار[11] و«الكِلاَبَ على البَقَر[12]» بالنصب وبهذا استشهد من ذهب من النحاة إلى أن النصب بعد حذف الفعل جائز حيث نصب المفعول به في جميع هذه الأمثال: وقد سمع من بعض العرب:

---

(١) مجمع الأمثال ١: ٢٣. (٢) نفسه ٢: ٦٨، ١٤٤، ٣١٨.

(٣) قيل إن قائله أبو حنش أوقفه خاله على فم غار به جماعة من أشجع يشربون وهم قاتلون إخوته، فقال بعضهم إن أبا حنش بطل فقال ذلك فصارت مثلا.

(٤) شرح التصريح ١: ٦٥. (٥) يضرب للمتمني محالاً.

(٦) مجمع الأمثال ٢: ١٨٧.

(٧) يضرب لمن خبره خير من مرآه... وقد قالها المنذر في أحد غلمة ضمرة.

(٨) أمثال العرب ٥٥. (٩) الكشاف ٣: ٤٧٤.

(١٠) حكمة تقال عند سكنى دار أو شرائها.. يعني أن السؤال عن الجار قبل الدار.

(١١) مجمع الأمثال ١: ١٧٢.

(١٢) يضرب عند تحريش بعض القوم على بعض من غير مبالاة يعني: لا ضرر عليك فخلهم.

اللَّهُمَّ سَبُعًا وَذِئْبًا[١] وقالوا[٢]: إِنْ لاَحَظِيَّةً فَلاَ أَلِيَّةَ[٣].

وقالوا[٤]: قدْ قِيْلَ ذَلِكَ «إِنْ صِدْقًا وإِنْ كَذِبًا[٥]»، وقد جاء هذان المثلان حجة لمن قال بأن نصب الاسم الواقع بعد «إن» على حذف كان الناصبة بعدها جائز في كلام بعض العرب، وقالوا: «إِنَّمَا يَجْزِيْ الفَتَى لَيْسَ الجَمَل[٦]» وقد احتج به من قال باستعمال ليس بمعنى «إلا».

وقالوا: مَنْ يَكُنْ أَبُوهُ حَذَّاءً تَجِدُّ نَعْلاَه «وقالوا» مَنْ يَبْغِ فِي الدِّيْنِ يَصْلَفُ[٧] فلم يجزم بـ «من» الشرطية، وقالوا: ذهبوا أيدى سبا، وتفرّقوا أيدى سبا[٨]. وللعرب في هذا لهجات -سنشير إليها في حينها.

وقالوا[٩]: كَالَّذْ تَزَبَّى زُبْيَةً فَاصْطَيْدَا[١٠]».

وقالوا[١١]: ذَهَبَ أَمْسِ بِمَا فِيْهِ[١٢] ولعل بناءه قد جاء على لهجة الحجازيين الذين يشترطون في بنائه شروطًا، وبنو تميم ينقسمون إلى:

قسم: يبنيه في حالة الرفع فقط، ويعربه ما لا ينصرف في الباقي.

---

(١) الخصائص ١: ٢٥٠.

(٢) يضرب في الأمر بمدارة الناس ليدرك بعض ما يحتاج إليه منهم.

(٣) مجمع الأمثال ١: ٢٠.

(٤) قيل إن أول من قال ذلك هو النعمان بن المنذر للربيع بن زياد العبسي وكان صديقه ونديمه وذلك لما عابه لبيد بمرض البرص فحاول الاعتذار فقال له ذلك.

(٥) مجمع الأمثال ٢: ١٠٢.

(٦) يضرب في المكافأة يعني إنما يكافئك الكيس لا الأحمق.. مجمع الأمثال ٢: ١٧.

(٧) يضرب لمن كانت له أعوان ينصرونه.. مجمع الأمثال ٢: ٣٠١، ٢: ٣٠٩.

(٨) يضرب مثلاً لمن تفرقوا تفرقًا لا اجتماع بعده... مجمع الأمثال ١: ٢٧٥.

(٩) يضرب مثلاً للرجل يأتي الرجل يسأله شيئًا فيأخذ منه ما سأل... مجمع الأمثال ٢: ١٦٠.

(١٠) انظر ص ٢: ١٦٠.

(١١) قيل إن قائله هو: ضمضم بن عمرو اليربوعي وكان قد هوى امرأة هي معشوقة من قبل ابن عمه نمر بن ثعلبة بن يربوع فأغاض ذلك ابن عمه ضمضم فقتله فقيل له في ذلك فقال: ذهب أمس بما فيه.. فذهب قوله مثلا.

(١٢) مجمع الأمثال ١: ٢٧٥.

obeikandl.com

ومنهم من يعربه إعراب مـا لا ينصرف أبدًا، وقالوا[١]: «أَطْرِقْ كَرَا إِنَّ النَّعَامَةَ فِيْ القُرَى[٢] وقد ذهب بعض النحويين إلى أن أصل «كـرا» كروان، وأنه جاء على لهجـة الترخيم مع الانتظار، وقال سـعد بن زيد مناة[٣]: «لُجْ مَالِ وَلَجْتَ الرّجم» يريد مالك فـجاء على لهجة الترخـيم مع الانتظار. وقالوا: فِيْـحِي فَيَاحِ[٤] حيث جاءت مـبنيةً علـى الكسر عند الحـجازيين كـما سبـق، وقالوا أيضًـا: بَاءَتْ عَرَارِ بِكَجْلِ[٥] وجاءت عرار مبنية عند الحجازيين والتميميين حيث وافق مذهب بني تميم الذين يشترطـون للبناء ههنا أن ينتهي مثل هذا وأشبـاهه بالراء، وقالوا: مَنْ دَخَلَ ظَفَارِ حَمَّرَ[٦]. وقالوا: القَوْلُ مَا قَالَتْ حَذَامِ[٧] على لهجة الحجاز... إلخ.

وقالوا: سُقُوا بِكَأْسِ حَلاَقِ[٨]. وقالوا: شَرّ مَا يُشِيْـئُكَ إِلَى مُخِّةِ عُرْقُوبٍ[٩]. أي يجيئك. والشين- بدل من الجـيم، وقد جاء على لهجـة تميم ومن نحا نحوهم فى إبدال صوت الجيم شينا. وقالوا: ما غبا غبيس على لغة طيء في غبا[١٠].

وهكذا أصبـحت الأمثال تحوى مـادة لهجية كـبيرة تحتـاج إلى دراسة عميـقة، ومحاولة نسبة ما لم يعز إلى أصحابه فقد يكون لهجة لبعض العرب.

أما القراءات:

فتـعتبر من أهم المصـادر اللغوية للوقوف علـى وجوه الاختلاف بين اللهـجات العربية فهى المصدر الـذي حفظ لنا اللغة العربية مُمَثَّلةً فيـها اللهجات ولما عُرِفَ به

---

(١) يضرب للذى ليس عنده غناء ويتكلم فيقال له اسكت وتوق انتشار ما تلفظ به كراهية ما يصيبه.

(٢) مجمع الأمثال ١: ٤٣١.

(٣) زعموا أن مالك المذكور كان أحمق فزوجه أخـوه سعد النوار بنت جد، فلما كان عند بناته وأدخلت عليه امرأته انطلق به سعد حتى إذا كان بـباب بيته قال له سعد لج بيتك فأبى فعاتبـه مرارًا فقال له سعد ذلك فصار مثلا -أمثال العرب ٥٧.

(٤) مجمع الأمثال ٢: ٧٧.

(٥) يضرب مثلا لكل مستويين يقع أحدهما بإزاء الآخر... مجمع الأمثال ١: ٩١.

(٦) يضرب للرجل يدخل في القوم فيأخذ بزيهم.. مجمع الأمثال ٢: ٣٠٦.

(٧) يضرب في التصديق.. مجمع الأمثال ٢: ١٠٦.

(٨) يضرب لمن فنوا بالموت... مجمع الأمثال ١: ٣٤٢.

(٩) يضرب لمن هو مضطر جدًا.... مجمع الأمثال ١: ٣٥٨.

(١٠) مجمع الأمثال ٢: ٢٣٩.

القراءُ في العصور المختلفة من دقة في التلقي، ومن ضبط وإتقان في الرواية، يؤيِّد هذا ما لاحظه بعضهم من أن كلا من الأئمة القراء كان يذهب فى إعراب ما انفرد به مذهبا من مذاهب العربية لا يُدفع، وقَصَدَ من القياس وجهًا لا يمنع[1]، فاختلاف القراء ينبني على ما بين اللهجات العربية التي قرئ بها القرآن من اختلاف العربية، وللتدليل على ذلك نقول: إن الصلة جِدَّ وثيقة بين القراءات ولهجات العرب، فلقد وضع علماء القراءات شروطًا لصحة القراءة المنقولة، منها موافقتها للهجة من لهجات العرب، فليس كل صالح للقياس جائز القراءة به، إذ القراءة سنةٌ متَّبعة أُخِذَتْ بالرواية والتلقى[2]، إضافة إلى أن اختلاف اللهجات العربية بين قبائل العرب في بيئاتها المختلفة قد أَدَّى إلى استمرار القراءات بأنواعها على الرغم من إلزام الناس بالأخذ بما أجمع عليه المسلمون.

وقد تمكَّنا من الوقوف عن طريق هذه القراءات الشاذة على أشياءَ كثيرةٍ من تأثير اللهجات في قراءات القرآن، وكتبُ القراءات والتفسير حافلة بمثل هذه القراءات، وبناء عليه فليس من شك في اعتبار القرآن بقراءاته التي قرئ بها وأصبحت كل منها مذهبًا لقوم من القراء وأتباعهم يتلونه عن طريقها خير ممثل لواقع أمة العرب اللغوي، فالتاريخ يحدثنا أن هناك لغة اصطنعها العرب لأنفسهم، ولأسباب متعددة صارت لغةً أدبيةً واصطُنِعَتْ بها آدابُها وفنونُ التفكيرِ فيها وتبادلت بها حديثها عند اجتماعها في المواسم والمناسبات الخاصة. وتتكوَّن هذه اللغةُ من أمشاج وأخلاط من كثير من لهجات العرب بحيث استصفت منها أحسنَها وأخذتْ منها أبينَها.

- وقد سبق الحديث عن ذلك- وكان إلى جانب تلك اللغة المنتقاة لهجات خاصة بقبائل العرب يتبادلونها فيما بينهم ويقضون بها حوائجهم فقد كان العرب قبل الإسلام وبعده منقسمين إلى فئتين:

١- **فئة الخاصة**: التي كانت تتطلع إلى صقل لغتها وتحسينها فتسمو في تعابيرها إلى مستوى أرفع من مستوى التخاطب العادي.

(١) ابن خالويه -الحجة في القراءات السبع - ٦١ وما بعدها. تحقيق سالم مكرم.
(٢) الإتقان -١: ٧٧، وانظر ما قاله ابن جني في الخصائص- ١: ٣٩٨ في ذلك.

٢- فئة العامة: التي كانت تكتفي بحظ قليل من فصاحة القول وبلاغة التعبير وتمضي تبعا لتقاليدها الخاصة وبيئتها الجغرافية الخاصة إلى الاستقلال وصياغة جملها وتركيب مفرداتها ولحن أصواتها[١].

ومع أن ذلك ليس هو كل السبب في حدوث هذه القراءات في كتاب الله واستمرارها فيما بعد إلا أنه من غير شك فإن الله تعالى قد أراد التخفيف والتيسير على أمة العرب حين أنزل كتابه على خير خلقه، فقد راعى حال الفئتين على ما بين جماعاتها من تفاوت في مستوى البلاغة وفصاحة القول.

فلم يَفْرِضْ عليهم من أول وهلة الالتزامَ بمستوى معين من الكلام وأباح لكل قوم أن ينطقوه على حسب عاداتهم الكلامية في طريقة النطق والأداءَ.

وقد أقرهم رسول الله -ﷺ- على ذلك، ومن هنا- ولأسباب أخرى- وَجَدَتْ القراءاتُ طريقَها إلى كتاب الله سواء في تلاوته أو في أدائه.

ومظاهر تعدد القراءات عند القراء معلومة وسنشير هنا إلى بعض تلك المظاهر مما هو وثيق الصلة باختلاف اللهجات العربية في نواحيها الصوتية والصرفية والنحوية.. وقد أشرنا إلى بعض ذلك فيما سبق.

ومن أمثلة هذه المظاهر في النواحي الصوتية:

الميل إلى الإدغام: وهو من خواص بعض اللهجات، ويعني به القراء: إدغام المثل أو مقاربه، والأحرف المتقاربة والمتماثلة كثيرة وشواهدها عديدة من القراءات فمن ذلك: قراءة عاصم[٢]: فَإِذَا هِيَّتَلْقَفُ مَا صَنَعُوا[٣].

وقراءة أبي عمرو عن مجاهد[٤] في نحو قوله تعالى: ﴿**خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرفِ**﴾ فأدغم الياء في مثلها في القراءة الأولى، والواو في مثلها في قراءة أبي عمرو، وفي المتقاربين[٥] نحو قوله تعالى: ﴿**وَلَم يُؤْتَ سَعَةً من المَالِ**﴾ [البقرة: ٢٤٧].

﴿**فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ**﴾ فأدغم التاء في السين، والحاء في العين[٦] لتقارب المخرجين.

---

(١) دراسات في فقه اللغة ٦٥.
(٢) الخصائص ١: ١٠٩٤.
(٣) الأعراف ١١٧: ١٩٩.
(٤) النشر ١: ٢٨٤.
(٥) نفسه ١: ٢٧٩.
(٦) النشر ١: ٢٦٠.

وتميل بعض اللهجات العربية إلى الهمز، وبعضها تسهل، وفي القراءات القرآنية شواهد من ذلك، فقد قرأ أبو جعفر «رَبَأَتْ» بالهمزة، بينما قرأ الباقون «رَبَتْ[1]» وقرأ بعضهم وَأَنهُ أَهْلَكَ عَادًا الْوُلَى وهي قراءة أبي عمرو، على حين قرأ الباقون (الأُولَى[2]).

وقد تحدثنا عن ذلك بشيء من التفصيل فيما سبق.

وهناك خلافٌ بين لغات القبائل العربية حول الإمالة أو عدمها في بعض كلامهم، وفي القراءات القرآنية أمثلة متعددة من أنواع الإمالة في لهجات بعض القبائل العربية فقد نقل ابن الجزري إمالة «رُؤْيَايَ» من قوله تعالى: ﴿**هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ**﴾ [يوسف: ١٠٠] وهى قراءة انفرد بها الكسائي، وأميلت كلمة «مَجْرَاهَا» من قوله تعالى: ﴿**بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا**﴾ [هود: ٤١]. وبها قرأ حفص، وانفرد بذلك الشذائي عن الداجوني عن ابن ماميه عن هشام: بإمالته، وأبو عمرو بن ذكوان على أصلهما، وهذا عام في كل راء بعدها ألف.

وأمالوا نحو قوله تعالى: ﴿**وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ**﴾ [البقرة: ٢٥٩] وقوله تعالى: ﴿**كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**﴾ [الجمعة: ٥]، وهي مروية عن ابن ذكوان، وأمالوا قوله تعالى: ﴿**لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا**﴾ [النساء: ٩] فقد أماله حمزة من رواية خلف[3].

وأمالوا ﴿**طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ**﴾ [طه: ٢] إذ أمالها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر[4].

وأشموا قوله تعالى: ﴿**وَغِيضَ الْمَاءُ**﴾.. ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾.. ﴿**سِيئَتْ وُجُوهُ**﴾.

وهناك من العرب من كان يميل في لهجته إلى المعاقبة في بعض أصوات الكلمة، وفي البحر المحيط ما نصه: «قرأ زيد بن علي «القُصيَا» فى قوله تعالى: ﴿**إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ**﴾ [الأنفال: ٤٢] بقلب الواو ياء، ولم

---

(١) النشر ٢: ٣٢٥.
(٢) النشر ٢: ٢٣٠، الإتحاف ٤٠٣.
(٣) النشر ٢، ٥٦، ٦٣.
(٤) النشر ٢: ٦٨.

يعتدوا بالساكن لأنه حاجز غير حصين كما فعلوا ذلك في صبية وفتية ودنيا، وقد ذكر أبو حيان أن ذلك هو القياس وهو لغة تميم[1] وأهل نجد، والأولى لغة الحجاز وأهل العالية وهو شاذ في القياس وبها وردت قراءة الجمهور[2].

وهناك من القبائل العربية من مالت في لهجاتها إلى التخفيف بحذف بعض الحركات داخل بناء الكلمة، وفي القراءات من قرأ:

﴿**لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ**﴾ [النساء: ٨٣] على «لَعَلْمَهُ»[3] بسكون اللام من «لَعَلِمَهُ».

وروي عن ابن عباس تحريك الواو من «عَوْرَات» في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ**﴾ [النور: ٣١]. وهي قراءة ابن إسحق والأعمش أيضًا[4].

وآثرت بعضُ اللهجات العربية تغييرَ حركة مكان أخرى فقالوا: تِلْعب، ويِذهب، وإعِهد... وفي القراءات: قراءة يحيى بن وثاب وأبي رزين العقيلي وأبي نهيك في ﴿**تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**﴾ [آل عمران: ١٠٦] و﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ**﴾ [يس: ٦٠].

وكما حدث ذلك في حركة مكان حركة فقد وقع في إبدال حرف من حركة لغرض وضوح الصوت وظهوره، ومن ثم مطلوا في نحو: بمنتزاح في منتزح، وينباع في ينبع، وأنظور في انظر[5]... وهكذا.

وفي القراءات: ما قرأ به قنبل[6] في قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ**﴾ [يوسف: ٩٠] حيث أشبع كسر حركة «يتق» المجزوم بحذف حرف العلة وبقاء الكسرة دليلا على الياء.

وقراءته أيضًا في قوله تعالى: ﴿**يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ**﴾ بإثبات الياء من طريق ابن شنبوذ وصلا ووقفا على لغة من يثبت حرف العلة في الجزم ويقدر حذف الحركة المقدرة على حرف العلة[7].

---

(١) البحر ٤: ٥٠٠.
(٢) نفسه ٤: ٥٠٠.
(٣) البحر ٢: ٢١٧.
(٤) الشواذ ١٠٣، البحر ٦: ٤٤٩.
(٥) الخصائص ٣: ١٢٠ وما بعدها.
(٦) البحر ٥: ٣٤٣.
(٧) الإتحاف: ٢٦٢، ٢٦٧ وما بعدها.

وهناك إبدال وقع بين فئات لهجات القبائل العربية تمثل في إيقاع حرف مكان آخر، إما لأنه شبيه به وإما لأن الآخر أظهر وأبين من الحرف المبدل منه أو لأسباب أخرى- سنبسطها جميعا في موضعها من الإبدال في القسم الثاني من الكتاب. . .

وقد ترك ذلك أثرَه في القراءات القرآنية فقد قرأ ابن مسعود[1] ﴿**وَثَوْمِهَا**﴾ بدلا من الفاء في قوله تعالى: ﴿**مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا**﴾ [البقرة: ٦١].

وقرأ بعض القراء قوله تعالى: ﴿**هَذِهِ الشَجَرَةُ**﴾ على «هذى الشِّيرَةَ» بإبدال الهاء ياء من «هذه» والجيم من الشجرة ياءً كذلك[2]. . . وأمثال ذلك من المظاهر الصوتية وردت في قراءات الكتاب العزيز.

فإذا تأملنا فيما خلفه اختلاف اللهجات العربية من أثَرٍ في النواحي النحوية رأينا في اختلافها مرآةً صادقة تعكس عليها مظاهرُ اختلاف تلك اللهجات نحويًا، فقد قرأ ابن جبير بنصب (عبادًا) من قوله تعالى[3]: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ**﴾ [الأعراف: ١٩٤] وقرأ الجمهور ﴿**وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ**﴾ [ص: ٣].

وقرأ أبو السمال «وَلاتُ حِيْنُ مَنَاصٍ»[4]. ولكل ذلك نظائر في اللهجات العربية فقد أعملت بعض اللهجات العربية أدوات لم تعمل في اللهجات الأخرى، وحذفتْ أحدَ جزأى الجملة الاسمية، في حين أُبقي عند بعضهم، واختلفتْ فيما بينها حول التقديم والتأخير والتذكير والتأنيث- وسنتحدث عن ذلك في موضعه من القسم الثاني. .

أما في النواحي الصرفية:

فقد أدغمتْ بعضُ القبائل العربية في بعض كلامها حروفًا متماثلة أو متقاربة بينما فَكَّتْ أخرى -وقد سبق ذكر ذلك.

وخَفَّفَتْ حين ثَقَّلَ الآخرون فقالوا: عَلْم وكَبْد وفَخْذ. . في عَلِم وكَبِد وفَخِذ - ويُشْعِرْكُمْ فِي يُشْعِرُكُمْ.

---

(١) البحر ١: ٢٣٣.
(٢) البحر ١: ١٥٨.
(٣) نفسه ٤: ٤٤٢.
(٤) البحر ٧: ٣٨٣.

وفي القراءات: قراءة أبي عمرو «وَرُسْلنا ورُسْلكم- سُبْلنا[1]- ويَشْعِرْكُم فَتُوبُوا إِلى بَارِئْكُم[2] وسيأتي ذلك.

فإذا تأملنا هذه المظاهر من تعدد القراءات حسبما يؤكده نزوله على سبعة أحرف أيقنا أن هناك اختلافات فيما بينها.

والواقع أن هذه المظاهر اللهجية قد اختفى معظمُها إلا فى قراءات وصفت بالشذوذ عند علماء القراءات حين ألزم كل المسلمين بالمصحف الإمام فبقيت تلك القراءات كأثر من آثار المرحلة السابقة، إذ شاعت وبقيت في الألسن بعد ذلك الإجراء، والدلائل على اختلاف تلك القراءات قبل توحد جميع المسلمين على المصحف الإمام واضحة، وقد نستبين درجة ذلك الاختلاف وخطورته من قول حذيفة بن اليمان لعثمان بن عفان -رضى الله عنه- «أدرك هذه الأمة قبل أن يتفرقوا في كتابهم كما فعل اليهود والنصارى فكان ما كان من أمر عثمان أن يجمع المسلمين على مصحف واحد، وأمر بتلك المصاحف فأحرقت[3]، ويؤكد كل الباحثين على أن الاختلافات الموجودة بين أيدينا إنما هي في الحرف الذي بقي من تلك الأحرف السبعة، وهذا هو الذي أسهمت اللهجات العربية بنصيب بارز في اختلاف القراءات عن طريقه- كما أوضحنا سابقًا- فوجدنا مظاهرَ الفتح والإمالة والترقيق والتفخيم والهمز والتسهيل وكسر حروف المضارعة وقلب بعض الحروف وإشباع ميم الذكور وإشمام بعض الحركات[4].

والأثر الذي تخلف عن اللهجات العربية واعْتُبِرَ سببًا مهمًا من أسباب تعدد القراءات إنما هو الذي مَكَّنَ النحاةَ من الوقوف على مصدر مهم من مصادر كلام العرب.

ولا يخرج ما اعتمدوا عليه في الاستشهاد أو الاعتراض على نوع واحد من هذه الأنواع التي تَأَثَّرَتْ باللهجات، فأثرت فيها بحيث غدت القراءة ممثلة للهجة ودليلا قويا على وجودها، وازدادت أهميتها بعد أن اختفت معالم بعض اللهجات أو لم

(١) ابن الجزري- التجهير والتيسير ٩٥.
(٢) الهمع ٥٤، الإتقان ٢: ٧٧.
(٣) تفسير الطبري ١: ١٨ وما بعدها -ط بولاق..
(٤) النشر ١: ٢٨.

تصل إلينا فيما خلّفه العرب من آثار لغتهم، وقد استطاعت القراءات القرآنية المنبثقة عن اختلاف اللهجات من أن تحتفظ بتلك المظاهر اللهجية وتبثها في جميع نواحيها الصوتية والصرفية والنحوية. . .

ولهذا كله نرى مدى القيمة اللغوية لهذا المصدر من مصادر استقاء اللغة وأثره في بناء أسس وقواعد لغة العرب، ومن المؤكد أن قيمة ما وصل إلينا من اللهجات عن طريق القراءات يجب الاعتمادُ عليه في الوصول إلى أحكام ثابتة في لغة العرب، ولهذا رأينا بعض المنصفين من النحاة خاصة يردون مذاهب شتى لبعض إخوانهم من النحويين واللغويين الذين وقفوا من القراءات القرآنية موقفًا غير حميد، وعابوا عليهم غلوهم في جانب القياس، ودعوا إلى الاحتجاج بكل ما ثبت وروده عن القراء وصحت نسبتهُ ولو كان في ذلك الوارد بعينه.

قال السيوطي: «وأما القرآن فكل ما ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية سواء كان متواترًا أم آحادًا أم شاذًا، وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية إذا لم تخالف قياسًا معروفًا، بل ولو خالفته يُحْتَجُّ بها في مثل ذلك الحرف بعينه وإن لم يجز القياس عليه كما يحتج بالمجمع على وروده ومخالفته القياس في ذلك الوارد بعينه ولا يقاس عليه نحو: استحوذ، ويأبى، وما ذكرته من الاحتجاج بالقراءة الشاذة لا أعلم فيه خلافًا بين النحاة. . .

وكان قوم من النحاة المتقدمين يعيبون على عاصم وحمزة قراءاتٍ بعيدة في العربية وينسبونهم إلى اللحن وهم مخطئون في ذلك فإن قراءاتهم ثابتة بالأسانيد المتواترة الصحيحة التي لا مطعن فيها وثبوت ذلك على جوازه في العربية.

وقد رد المتأخرون منهم ابن مالك على من عاب عليهم ذلك بأبلغ رد واختار جواز ما وردت به قراءاتهم في العربية وإن منعه الأكثرون مستدلا به[1].

ويبدو -لي- أن طعن بعض النحاة في القراءات القرآنية ولا سيما الصحيحة منها إنما تم في عصور المتأخرين منهم حين بالغوا في أمر القياس واشتطوا فيه وحاولوا إخضاع القراءات له، وأظن أن ما حدا ببعضهم إلى ذلك أن منهم من كان

(١) الاقتراح ١٤.

ينتزع من كلام العـرب حكمًا ثم يتخذه مـذهبا نحويا ثم تعرض له القـراءة الثابتة النسبة على خلاف ذلك الحكم فيأخذ في صـرفها عن وجهها ويحاول تأويلها لكي لا تخرق قاعدته النحوية التي اصطنعها مذهبًا له.

أما أوائل النحاة فقد أعرضوا عن الخوض في ذلك لأسباب أهمها:

كثرة وجود القراءات الصحيحة وتباينها أحيانًا مما جعل من الصعوبة إيجاد قاعدة نحوية تنتظم جميع تـلك الوجوه وتستجيب مع اختلافـها، وإنما الهدف من النحو الوصول إلى قواعد كلية تنتظم عدة ظواهر لغوية متقاربة وتسمح بقياس غيرها من الظواهر المشابهـة لها عليهـا، ولما لم يكن في وسع النحاة الأوائل- وأكـثرهم من القراء- اسـتقراء كل تلك القراءات ومـلاحقة خواصـها المتباينة، تعـذر عليهم أن يضعوا للكلمة الواحـدة تُقْرأ بأوجه إعرابية مختلفة قواعـدَ متعددة؛ لأن ذلك كان سيؤدى بهم إلى متاهات ما بعدها متاهات، فآثروا السلامة وتجنبوا -قدر الإمكان- الخوض في قراءات الكتاب العزيز أو محاولة فرض القواعد عليها[1].

ولعل مما يؤكد ذلك: اعـتراف بعضـهم بأن أئمة القـراء لا تعمل في شيء من حروف القـرآن على الأفشى في اللغـة والأقيس في العربيـة، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل.

وإذا ثبتت الرواية لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصـير إليها[2]، لهذا وجدنا يونس بن حـبيب- أستاذ سيبـويه الثاني بعد الخليل- يجيز جر «المسجد» في قوله تعالى: ﴿**وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ [البقرة: ٢١٧] بالعطف على الضمير المجرور في «به»، وهو الأمر المخالف للقاعدة البصرية التي لا تجـيـز عطف الاسم الظاهر عـلى الضـمـير المخـفـوض من غـيـر إعـادة الخافض[3].

وبعضهم يعتذر بأن الاستقراء دل على أن كلام العرب قسمان:

قسم اشتهر استعماله وكثـرتْ نظائره فجعلوه قياسًا مطردًا، وقسم لم يظهر لهم فيه القيـاس لقلته وكثرة ما يخالفـه فوصفوه بالشذوذ ووقفـوه على السماع لا لأنه

(١) د. عفيف دمشقية -المنطلقات الأساسية والفنية في النحو- ٥٤...

(٢) الإتقان ١: ٧٥.

(٣) البحر ٢: ١٤٧.

غير فصيح بل لأنهم علموا أن العرب لم تقصد بذلك القليل لأن يقاس عليه، وإذا سلموا أن ما جاءت عليه الآية أو القراءة مما يخالف عربيٌّ فصيحٌ كان اعتذارهم بأن العرب لم تقصد بذلك القليل لأن يقاس عليه أوهي من خيط العنكبوت.

وفي صحة القياس على ما ترد به قراءات الآيات الكريمة مخالفًا لما اشتهر في كلام العرب زيادة في أساليب القول وفتح طرق يزداد بها بيان اللغة سعة على سعته، فحذف «أن» المصدرية الناصبة للفعل المضارع في المثل المشهور: تسمع بالمعيدى خير من أن تراه... جاء مثله في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا**﴾ [الرعد: ١٢] فقد ذهب بعضهم إلى أن جملة «يريكم» مصدر على إضمار «أن» المصدرية كما قال:

أَلاَ أَيّهُـذَا الزَّاجِـرِي أَحْـضُـرُ الْوَغَى

برفع أحضر، والتقدير: أن أحضر فلما حذف «أن» ارتفع الفعل، وليس هذا من المواضع التي يحذف منها «أن» قياسا(١).

ومثل قول النحويين: سَاءَ ضَرْبُ عَمْرا زَيْد «جاء مثله في القرآن الكريم في قراءة ابن عامر»(٢) ﴿**وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ**﴾ [الأنعام: ١٣٧].

ومثل ما روي في غير النظم من حكاية بعض العرب «مَا فِيْهَا غَيْرُهُ وفَرَسِه» بجر الفرس عطفًا على الضمير في «غيره» من غير إعادة الخافض والتقدير: ما فيها غيره وغير فرسه: قراءة ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والنخعي ويحيى بن وثاب والأعمش وأبي رزين وحمزة من السبعة(٣): ﴿**تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ**﴾ [النساء: ١]. ولا التفات إلى من ادعى اللحن فيها أو الغلط على حمزة أو يخرِّجها فرارا من العطف على الضمير المجرور بغير إعادة الجار، وقد ورد من ذلك في أشعار العرب كثيرٌ يخرَّج عن أَنْ يُجْعَلَ ضرورةً وإذا تقرر أن العطف بغير إعادة الجار ثابت من

(١) الكشاف ٣: ٤٧٤، البحر ٧: ١٦٧.

(٢) سراج القارئ المبتدئ -أبو القاسم علي القاصح- ٢١٦- دار الفكر.

(٣) سراج القارئ المبتدئ -١٨٨، البحر: ٣: ١٥٧ وما بعدها.

كلام العرب في نثـرها ونظمها كان يخرج عطف «وَالْمَسْـجِدِ الحَرَامِ» أرجح بل هو متعين لأن وصف الكلام وفصاحة التركيب تقتضى ذلك[1].

أما الحديث الشريف:

فمع أن بعض أئمة اللـغة والنحو قد ذهبوا إلى عـدم أحجية الاستـشهاد به فى مسائل اللغـة والنحو بحجة أن الأحاديث لم تُنْقَلْ كمـا سُمِعَتْ من النبي -ﷺ-، وإنما رويت بالمعنى، فلم تُدَوَّن إلا في عصور متأخرة من عصر النبوة حيث فسدت اللغة وكثـر اللحن وَوُضِعَ كَثِيْرٌ منه في بعض رواياته، مما حـدا ببعض أوائل النحاة أَنْ يُنَحُّوا هذا المصدرَ عن دائرة الاسـتشهاد به في بناء قواعـدهم وسار عليه بعض المتأخرين[2]، إلا أننا نعتقد وَهْمَ هذه الدعوى من عدة نواح:

١- كون الحديث قد نُقِل كُلُّه بالمعنى يحتاج إلى برهان؛ إذ هناك أنواع كثيرة منه نُقِلَتْ بألفاظها، وَدُوِّنَتْ كـما سمعت من رسول الله -ﷺ-، والبقيـة الباقية- إن صح نقلهـا بالمعنى- فقـد تَمَّ تدوينُها في الصـدر الأول والناس مايزالون ينـطقون العربية صافيةً نقيةً «وغاية الأمر تبديل لفظ بآخر يصح الاحتجاج به»[3].

٢- أن من عـرف الكيـفـيـة التى دوّن عليـهـا، والطريقـة التي تمّ في إطارها والشروط التي أحاطت بروايته بالمعنى، يتـبين له بكل وضوح أن مثل تلك الشروط لا تَتَوَفَّرُ إلا في الصـحابة والتابعين وكبار أئمة الرواة والفـقهاء[4]، وهم مَنْ يُقَدَّمُ قولهم في الاحتجاج به في اللغة والنحو على ما سواه من كلام العرب.

٣- التحرِّي والدقة اللتـان صاحبتا عمليةَ الجمع ولكل ذلك شـواهد كثيرة تَجُلُّ عن الحصر.

٤- ثم من يقول: إنَّ أوائل النحاة ومن تَبِعَهُمْ من المتأخرين لم يكونوا يحتجون بالحديث فهذا كـتاب سيبويه بين أيدينا- وهو كما قلنا أول تقعـيد في العربية -وبه نجد نصوصًا من حديث رسول الله -ﷺ- وان فَاتَه أن يَنُصَّ على ذلك[5].

---

(١) البحر ٢: ١٤٧ وما بعدها، ٣: ١٥٧ وما بعدها، وينظر: الإنصاف: ٢: ٤٣١..

(٢) الخزانة: ١: ٥ وما بعدها. (٣) الخزانة ١: ٥.

(٤) صبحي الصالح- علوم الحديث ومصطلحه ٣٢٩.

(٥) الكتاب ١: ٢٣٣، ١: ٣٩٦. ط بولاق.

ولا نسلم ألبتة بأن المتأخرين من نحاة الأقاليم قد أعرضوا عن الاحتجاج بالحديث فَكُتُبُهُمْ مَلأَى بالاستشهاد به، فقد اعتمد عليه الشريفان الصقلى والغرناطى في شرحيهما لكتاب سيبويه وابن الحاج في شرح المقرب، وابن الخباز في شرح ألفية ابن معطي، وأبو علي الشلوبين في كثير من مسائله، وكذا استشهد به السيرافي والصفار في شرحيهما لكتاب سيبويه، وابن مالك الذي أكثر منه حتى ضاق به أهل زمانه من النحويين، وابن هشام. وقال أبو الطيب: بل رأيت الاستشهاد بالحديث في كلام أبي حيان نفسه[1].

ومهما يكن الأمر فحاجة النحوى إلى الاعتماد على ما جاء في هذا المصدر من كلام العرب لضبط ألفاظه وتأسيس قواعده معلومة.

وإذا كان النحاة يستشهدون بأقوال قالها من ليسوا بعرب، وروايات نقلها بعض الأعاجم ومن يَطْعَنُ في عدالتهم، فإن الانصاف يقتضي منهم الاحتجاج بما صحت نسبته إلى رسول الله -ﷺ- منه، ومما دوّن في الصدر الأول.

ولعله بوحي من هذا الإنصاف وتحت تأثير الحاجة إلى الاستفادة من هذا النبع الفياض، كان تَدَافُع المتأخرين من النحاة إلى الاحتجاج بالحديث احتجاجًا أنساهم أحيانا التفكير في صحة نسبة الأثر وسلامة متنه.

ومع أننا نظن أنهم غير مصيبين مطلقًا[2] في هذه النصوص، إلا أنه ليس في وسعنا إلا القول بأن الحديث الشريف قد حوى من مظاهر لهجات العرب وخصائصها ما يدعونا إلى الاعتراف بأنه لم يكن من الصواب - بحال- تَجَاهُلُ بعض النحاة لهذا المصدر من مصادر لغة العرب محتجين بعلل[3] لا تثبت أمام البحث والتمحيص.

ففي النواحي الصوتية:

نجد أن مثل قول الشاعر:

ذَاكَ خَلِيْلِي وَذُو يُوَاصِلُنِي يَرْمِيْ وَرَائِي بِامْسِهَمْ وَامْسَلِمَه[4]

(١) سعيد الأفغاني- أصول النحو ٥٣ وما بعدها.

(٢) ينقل هذا الرأي عن الشاطبي وهو ممن عرف بالتوسط بين مذهبي المانعين ألبتة، والمجيزين مطلقًا... يراجع الخزانة ١: ٧.

(٣) الخزانة ١: ٥ وما بعدها. (٤) المغني: ١: ٤٨.

جاء قوله -ﷺ- فيما رواه الإمام أحمد في مسنده:

«لَيْسَ مِنَ امْبِّر امْصِيَامُ فِي امسْفَرَ»[1].

وما ورد في كتابه إلى وائل بن حجر وأهل حضرموت:

«وَمَنْ زَنَى مِنَ امْبكرِ.. وَمِنَ امْثَيِّب[2].

وهي لهجة معروفة لطيء[3] وحمير وكثير غيرهم.

ويمكن أن يستشهد على لهجة الاستنطاء التي عرفت عند أهل اليمن وأزد وهذيل والمدينة وسعد بن بكر وقيس[4] الذين يعمدون إلى تحويل صوت العين في الفعل «أعطى وما تصرف منه» نونًا فيقولون: أنطى، ومنطي، ومنطاة بقول رسول الله -ﷺ- في كتابه إلى وائل ابن حجر وأهل حضرموت[5] أيضًا حيث قال: «وأنْطُوا الثَّبَجَةَ».

ومثل ما حكي عن بعض أئمة اللغة والنحو أن «نَعِم» لغة في «نعم» من نحو قوله تعالى: ﴿**فَهَلْ وَجَدْتُّمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا**﴾ قالوا: «نَعَمْ» وهي لهجة أشياخ قريش وكنانة، وأن الفتح لغيرهم[6] جاء ما رواه قتادة عن رجل من خثعم «دُفِعْتُ إلى النَّبيِّ -ﷺ- وَهُوَ بِمِنَى - فَقُلْتُ: أَنْتَ الَّذِى تَزْعُمَ أَنَّكَ نَبِىٌّ؟ فَقَالَ: «نَعِمْ»[7].

أما فى النواحي الصرفية:

فنجد أن بعض النحاة يزعمون أن الماضي واسم الفاعل والمفعول من الفعل «يَدَعُ» قد أميتت واستغنت العرب عنها بـ «ترك» وما تصرف منه[8] وما جاء منه

(١) مسند الإمام أحمد ٥: ٤٣٤- ط بيروت.
(٢) صبح الأعشي ٢: ٢٤٦ وما بعدها.
العقد الفريد ٢: ٤٨...
(٣) المغني ١: ٤٧.
(٤) المزهر ١: ٢٢٢.
(٥) صبح الأعشي ٢: ٢٤٦ وما بعدها.
العقد الفريد ٢: ٤٨.. وما بعدها.
(٦) مكي بن أبي طالب- شرح نعم وبلى وكلا... ص: ١٠٨.
(٧) اللسان ١٦: ٦٨ وما بعدها -ط بولاق- مادة نعم.
(٨) الفيومي -المصباح المنير ٢: ٨١٢.

فهو شاذ في السماع مطرد في القياس ويجب تحاميه، ومن ذلك قول أبي الأسود الدؤلي:

لَيْتَ شِعْرِى عَنْ خَلِيْلِي مَا الَّذِي غَالَه فِي الحُبِّ حَتَّى وَدَعَهْ

فشاذ، وكذلك قراءة بعضهم: ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ**﴾ [الضحى: ٣][1].

ولا ندرى ما سبب شذوذ مثل هذه الصيغة عند النحاة ألقلتها في كلام من وصل إليهم من العرب حين استنباط القواعد أم لشيء آخر في نفوسهم؟

فإن كان لقلتها فليس الحق معهم بدليل ورودها في الشعر كبيت الأسود السابق، وقول الآخر:

وَثُمَّ وَدَعْنَا آلَ عَمْرٍو وَعَابِرٌ فَرَائِس أَطْرَافِ المُثَقَّفَةِ السُّمْرِ

وقراءة عروة بن الزبير وابنه هشام ورواها ابن عباس عن النبي -ﷺ- كما قرأ بها مقاتل وأبو حيوة وابن أبي عيلة ويزيد النحوي في قوله تعالى: ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ**﴾ مخففة[2] ويصدّقها ما رواه البخاري، قال: حدثنا صدقة قال حدثنا ابن عطية قال سمعت ابن المنكدر قال سمعت عروة بن الزبير: أن عائشة أخبرته: اسْتَأْذَنَ رَجُلٌ عَلَى النَّبِيِّ -ﷺ- فقال: «ائذنوا لَهُ بِئْسَ أَخُو العَشِيْرة» فَلَمَّا دَخَلَ أَلاَنَ لَهُ الْكَلاَمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله قُلْتَ الَّذى قُلْتَ ثُمَّ أَلَنْتَ الكلاَمَ قَالَ: أَيْ عَائِشَة: «إِنَّ شَرَّ الناسِ مَنْ تَرَكَهُ النّاسُ أَوْ وَدَعَهُ الناسُ اتِّقَاءَ فُحْشِه»[3].

وما روى أيضًا عن عمر بن خالد قال حدثنا أبو المليح قال: سَمِعْتُ ميمونًا «يعني ابن مهران» قَالَ: سَأَلْتُ نَافِعًا: هَلْ كَانَ ابْنُ عُمَرُ يَدْعُو لِلْمَأْدُبَةِ؟ قَالَ: لكنَّه انْكَسَرَ لَهُ بَعِيْرٌ مَرَّةً فَنَحَرَهُ ثُمَّ قَالَ: احْشُرْ عَلَيَّ المُدِيْنَةَ، قَالَ نَافِعٌ: يَا أَبَا عَبْد الرَّحْمَنِ عَلَى أَيِّ شَيءٍ؟ لَيْسَ عِنْدَنَا خُبْزٌ، فَقَالَ: اللّهُمَّ لَكَ الحُمْدُ، هَذَا عِراقٌ وَهَذَا مَرَقٌ، أَوْ قَالَ: مَرَقٌ وَبَضْع فَمَنْ شَاءَ أَكَلَ وَمَنْ شَاءَ وَدَعَ»[4].

---

(١) الخصائص ١: ٩٩.

(٢) البحر ٨: ٤٨٥.

(٢) صحيح البخارى ٨: ١٦ مطابع الشعب.

(٤) البخاري -الأدب المفرد -رقم الحديث ٣٤٣، فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد ٢: ٦٦٧-٦٦٨- ط الإرشاد.

أما فى المصدر: فقد روى مسلم عن أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم أنهما سمعا رسول الله -ﷺ- يقول- على أعواد منبره - لينتهين قَوْمٌ وَدْعِهِمٌ الجُمُعَاتِ أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ثُمَّ لَيَكُونَنَّ مِنَ الغَافِلِيْنْ»[1].

ويمكن أَنْ نَعُدَّ من الشواهد على لهجة الحجازيين وبني تميم بالكسر في «الوتر» حالة العدد وبالفتح فيها لأهل العالية[2]، قوله -ﷺ- فيما رواه عنه علي -رضي الله عنه- «إِنَّ اللهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ فَأَوْتِرُوا يَا أَهْلَ الْقُرآنِ»[3].

أما فى النواحي النحوية:

فنجد مثلا قول الشاعر:

واشْدُدْ بِمَتْنَيْ حَقَبٍ حِقْوَاهَا

وقوله:

بَلَغَا في المُجْدِ غَايَتَاهَا

وأمثاله مما أنشده النحاة على إلزام المثنى الألف رفعا ونصبا وجرا قوله -ﷺ: «لاَ وِتْرَانِ فِي لَيْلَةٍ».[4]

ومثل ما روي عن الثقات من أن تميما كانت تعمل «إِنَّ» وأخواتها في جزأي الجملة الاسمية من مثل ما أنشدوه لعمر بن أبى ربيعة:

إِذَا اسْوَدَّ جُنْحُ اللَّيْلِ فَلْتَأْتِ وَلْتَكُنْ خُطَاكَ خِفَافًا إِنَّ حُرَّاسَنَا أُسْدًا

جاء قول الصحابي الجليل أبي هريرة[5] - رضي الله عنه:

«وَإِنَّ قَعْرَ جَهَنَّمَ سَبْعِيْنَ خَرِيْفًا».

---

(١) النووي- منهاج الصالحين ١٤٧.

(٢) المصباح المنير ٢: ٨٠١.

(٣) الترمذي -رقم الحديث ٤٥٢، ١: ٢٨٢- ط المدني عام ١٣٨٤هـ.

(٤) الترمذي -رقم الحديث ٤٦٨- ١: ٢٩٢- ونصه: حدثنا هنّاء أخبرنا ملازم بن عمر وقال حدثني عبد الله ابن بدر عن قيس بن طلق بن علي عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا وتران في ليلة».

(٥) صحيح مسلم -رقم الحديث ٣٢٩، كتاب الإيمان -ص ١٨٧- ط عام ١٣٧٤هـ.

وهي لغة مشهـورة وبها ورد كثير من كلام العرب وأشـعارها وقرئت بها بعض القراءات، فلماذا التأويل؟

ومثل ما نقله الفراء عن طيء أنهم يحذفون الياء الذي هو لام الفعل في الواحد المذكر معربًا كان أو مبنيا بعد الكسر – كما سيأتي في موضعه –من نحو:

وابْكَنَّ عَـيْـشًـا تَوَلَّىَّ بَعْـدَ جِـدَّتِه طَابَـتْ أَصَـائِلُـه فِيْ ذلكَ الْبَـلَدِ

وبعد الفتح نحـو قول العرب: اخشَنَّ يا يزيد، والأصل: ابْكِيَنَّ واخْـشَيَنَّ، ما رواه أحمد في مسنده[1]، من قوله: ﷺ: «لَتُـؤَدَّنَّ الحُقُوق إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ القِـيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ تَنْطَحُهَا».

ورواه بعضـهم بضم الدال ونصب الحقـوق والفعل مـسند إلى الجمـاعة الذين خوطبوا به، وذلك على الوجه الشائع.

قال الطيبي: إن كان الرد لأجل الرواية فلا مـقال، وإن كان بحسب الدراية فإن باب التغليب واسع فيكون قد غلب العقلاء على غيرهم، وجعل حتى غاية بحسب التغليب.

والصحيح: الرواية الأولى، وقد أنكرها ابن مالك وقال: لاتصلح في العربية، وإنما المنقول عن طيء حذف ياء الضـمير بعد الفتحة لا لام الـفعل الواحد المذكر، والواجب عنده: لتؤدين الحقوق، بإثبات اليـاء، إلا أن رواية الحديث المعتد بها قد جاءت على لهجة عرفت عن طريق طيء فيجب قبولها[2].

وهكذا نرى أن الحـديث الشريف قـد حمـل شواهد لا بأس بهـا من لهجـات العرب رددها النحويون كثيرا فى بطون مـؤلفاتهم، فهل يصح بعد هذا أن يتجاهل بعضهم الاعتمـاد على هذا المصدر في ترجيح استعمال مّا أو تـأصيل قاعدة نحوية بعلل واردة على ما ذهبوا إليه هم أنفسهم من ادعاءات؟

---

(١) مسند الإمام أحـمد بن حنبل ٢: ٢٣٥ –مع اختلاف فـي بعض ألفاظ الحديث. ونصه: حـدثنا عبد الله حدثني أبى ثنا ابن أبي عـدي عن شعبة عن العلاء ومحـمد بن جعفر قـال ثنا شعبة قال سـمعت العلاء يحدث عن أبيـه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لتؤدن الحـقوق إلى أهلها حتى يقـتص للشاة الحجاء من الشاة القرناء منطحها»، وقال أبو جعفر يعني في حديثه: يقاد للشاة الجلحاء.

(٢) البغدادي– الخزانة ٤: ٥٨٠.